

هل يمكن وصف الجنة؟ ولماذا ضُرب الأمثال بأنهار العسل والخمر؟

كيف يمكن وصف الجنة لمن لم يُدرك ماهيتها؟

الجنة هي النقطة التي يتكاثر حولها الجدل والغموض، خاصة فيما يتعلق بكنه نعيمها؛ إذ لم يُنح لأحد منا أن يرى الجنة أو يجرب ملذاتها. ومن هنا، ينشأ التساؤل المنهجي: هل وصف الجنة ممكن أصلاً؟ تتركز الشبهات عادةً حول ما يتجاوز إدراكنا الحسي. وعليه، فإن الطريقة الأمثل لتعريف المجهولات ووصف المستجدات هي الاستعانة بالمعارف المألوفة للمتلقي.

لنتأمل مثال "الزرافة"؛ التي كانت توصف قديماً بـ "الجمل-البقر-النمر". لماذا؟ لأنّ الناس لم يعرفوا هذا الحيوان من قبل، فشبهوه بما يعرفونه: رقبة طويلة كالجمل، قرون وسمات تشبه البقر، وجلد مرقط كالنمر. هكذا استطاعوا أن يقربوا صورته لأذهان السامعين. والآن، تخيل محاولة وصف عالم الدنيا لجنين! ما مدى استيعاب هذا المخلوق، الذي لا يعرف سوى ضيق الرحم ودم الأم كغذاء، للحديث عن ألوان الدنيا وأطعمتها؟

نحن البشر نعيش في "رحم الدنيا"، فإن تلك التساؤلات والقيود والشبهات نفسها تبرز في وصف المرحلة التالية من حياتنا. ومن أبرز شبهات مثارة حول الجنة هو: لماذا يوصف نعيمها بملذات مادية؟ إذا كنا سننال ذات النعم في الآخرة، فلماذا كل هذا العناء للوصول إليها؟ بل توجد أماكن في الدنيا تتشابه في خصائصها مع أوصاف الجنة، فما المتعة التي سيجدها سكان تلك الأماكن في دخولها؟ أليست هذه القيود هي ما نواجهها في وصف الآخرة والجنة؟

في هذا المقال، سنسعى لاستجلاء أفضل منهج لوصف عالم الآخرة والجنة لمن لم يدركها، وذلك عبر استعراض خصائص الدنيا والآخرة والفروقات بينهما، كما سنجد إجابات لشبهات مثارة حول الجنة ونعيمها.

الرابط بين تفاوت الدنيا والآخرة ومنهج وصف الجنة

وفقاً [لقانون النسبة](#)، فإن نسبة الدنيا إلى الآخرة في العظمة والاتساع تُشبه نسبة رحم الأم إلى عالم الدنيا بأكمله. فالجنين لا يمكنه بأي حال من الأحوال إدراك حقيقة الدنيا، لضخامتها التي تفوق محيطه بكثير. إن تصوّر هذا العالم المعقّد غير ممكن للجنين. ولا يمكنه استيعاب عظمة الدنيا وتباينها وجوهر نعمها إلا بالخروج إليها. وبقدر ما يصعب على الجنين إدراك عظمة الدنيا وتنوع نعمها وهو في رحم أمه، يصعب علينا نحن - الأجنة في رحم الدنيا - إدراك حقيقة الآخرة وكمالها وتعقيد نعيمها وتنوعه. ولن نتمكن من استيعاب عظمة الجزاء النعيم إلا بعد ولوج عالم الآخرة والجنة.

الفارق بين الدنيا والآخرة واسع للغاية؛ فكلّ ما نملكه هنا من زينة وكمالات لا يعدو أن يكون لعب أطفال بالقياس إلى ما وعدنا به هناك.^١ ولهذا وصف الله الآخرة بـ"المُلْك الكبير".^٢ وفي الحديث عن الجنة قال سبحانه إنّ عرضها كعرض السماوات والأرض،^٣ فهل يمكن لعقل محصور في أفق الدنيا أن يتخيّل عالماً بهذا الاتساع؟ قطعاً لا! لكنه مع ذلك يستطيع أن يقترب من المعنى من خلال بعض الصور.

إنّ سهولة إدراكنا لأمر عظيمة غير معهودة تتأسّس على مدى ألفتنا لِمَا يماثلها في عالم الشّهادة؛ فمتى ما ألفت النفس شيئاً، سهّل عليها استيعاب صورته الأكبر وتجلياته الأعظم. لذلك، فإن الباري سبحانه وتعالى، وهو يصف الجنة، يشير إلى صنوف من النّعم المادية التي سبق لنا أن رأينا أو لمسنا نظائرها المصغّرة في الدنيا. كما أنه لا يغفل الإشارة إلى النعم الروحية والمعنوية كقرب الله، والتسبيح، والمعرفة، والصحبة مع المقربين، ورضوان الله الأكبر.

قد يعود اهتمامنا وتساؤلاتنا البشرية بالنّعم المادية أكثر من غيرها إلى ميلنا الفطري نحو الأشياء المألوفة و المحسوسة، التي تتوافق مباشرة مع طبيعتنا الجسدية؛ إذ إنّنا نركز غالباً على ما نعرفه وندركه حسّياً. بطبيعة الحال، لا يعني هذا غياب التوافق بين كياننا والنّعم الروحانية؛ فنحن في هذه الحياة الدنيا تركيب من نفس و جسد. غير أن الماديات والنّعم التي تُدرَك بالبصر تكون أكثر حضوراً وملموسية، وبالتالي أسهل في الفهم والاستيعاب.

دواعي توصيف الجنة بالمحسوسات المادية

يؤكد القرآن الكريم على أن المعاد يجمع بين الشقين الجسدي والروحي معاً؛ فالإنسان يُحشر في ذلك المشهد بكلّيته من الروح والجسم، ومن الطبيعي أن تتوفر له سُبل العَمرة [بِالمنح والبركات](#) الإلهية في كلا الجانبين. عادةً ما تنشأ شبهات وإشكالات إما نتيجة الجهل بحقائق الأمور، أو بسبب إغفال الواقع والحقيقة عمداً أو سهواً. وللإجابة على أي إشكال، لا بد من العودة إلى جذوره. وفي سياق الشبهات المثارة حول النعيم الأخروي، يبرز التساؤل حول البُعد المادي لهذه النّعم. ورفعاً لهذه الحيرة، لا بد أولاً من فهم الدواعي التي تجعل الوصف القرآني للجنة يستخدم هذا النوع من النعيم.

إن القاعدة التي تحكم هذا الوصف هي قاعدة التقريب من المألوف؛ فلنفترض أننا وعدنا طفلاً بمكافأة تفوق مستوى إدراكه، كأن نَعِدّه بزواج مناسب مقابل عمل صالح. من المرجح أن تكون ردة فعل الطفل فاترة أو غير مبالية، لأنه يفتقر إلى الإدراك الكافي لتلك المنزلة. في مثل هذه الحالة، ينبغي تقديم مكافأة تتناسب مع مستوى نُضجه وإدراكه المسبق.

١ سورة الأنعام، الآية ٣٢

٢ سورة الإنسان، الآية ٢٠

٣ سورة آل عمران، الآية ١٣٣

هذه القاعدة ذاتها تنطبق على وصف الجنة ونعيمها. فوفقاً للتركيب الهندسي والرياضي للوجود وقاعدة النسبة، فإن هناك تفاوتاً هائلاً بين المقاييس في الدنيا والآخرة؛ إذ يُقدَّر عظمَة كل شيء في العالم الآخر بأضعاف مضاعفة مما هو عليه في عالمنا. لذا، فلو كُشفت لنا حقيقة النعم الأخرى، لعجزنا عن استيعابها. من هنا، يلجأ الخالق سبحانه إلى استخدام عناصر مألوفة لأذهاننا، خبرناها في دنيانا، لتقريب مفهوم النعيم المطلق.

بالضرورة، يجب أن يتم توصيف الجنة لمن يعيش في عالم الدنيا باستخدام خصائص مادية. فالنهر والمُسك والصوت والغصن في الآخرة هي مفاهيم أسمى وأعظم آلاف المرات من نظائرها الدنيوية، وتوصيف الجنة من خلال ذكر الشجر وحفيف الأنهار ومسك الرائحة هو مجرد أمثلة ومفاهيم لتقريب أذهاننا المحدودة إلى الحقيقة. وهذا ما تؤكده الآيات الكريمة في مطلع بعضها باستخدام عبارة: «مَثَلُ الْجَنَّةِ»؛ فكل هذه الأوصاف هي ظلال من الحقيقة الكبرى لنعيم الجنان.

يتجاوز عظمة الجنة واتساعها حدود الاستيعاب الإنساني، بحيث لا يمكن توصيفها إلا باللجوء إلى أمثلة مادية محدودة تهدف إلى تنوير الذهن وتقريب المفهوم. يؤكد هذا المنهج ما ورد في مطلع بعض الآيات التي تصف الجنة ونعيمها باستخدام عبارة ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾،^٤ دلالة على أن هذه الأمثلة ما هي إلا ظلال لحقيقة جوهرية للنعيم الموعود.

شبهة نهر العسل: نقاش حول الطبيعة المادية للجنة

تُعدّ شبهة نهر العسل من مسائل جدلية تُطرح عند الحديث عن الجنة ونعيمها. يسعى بعض المتشككين، متذرعين بما يُسمّى "أدلة علمية"، إلى إنكار الجنة وما فيها من عطاء، عبر التساؤل عن كيفية يمكن بها للعسل أن يجري على هيئة نهر. يُشير هؤلاء إلى أن العسل، بالنظر إلى لزوجته وكثافته العاليتين، يتطلب شروطاً خاصة للجريان، أبرزها وجود سطح شديد الانحدار ودرجة حرارة مرتفعة لتسهيل سيولته. وبناءً على هذا التصور المادي، يخلصون إلى أن الاستمتاع بنهر العسل في الجنة سيقضي مجهوداً مضاعفاً يتمثل في تسلق الجبال وتحمل درجات حرارة عالية، مما يحوّل الجنة، في نظرهم، إلى صورة من صور الجحيم!

ولمعالجة هذه الشبهة، من الضروري أولاً ترسيخ مفهوم الأنهار في الجنة والإشارة إلى الأساس القرآني لوجودها وخصائصها الاستثنائية. لقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أربعة أصناف من الأنهار، لكل صنف منها صفة فريدة

تميزه، كما ورد في سورة محمد، الآية (١٥)، وهي:

- نهر ماءٍ صافٍ لا يتغيّر طعمه ولا رائحته.
- نهر لبنٍ لا يفسد طعمه ولا يحمض.

• نهر خمرٍ لذة للشاربين.

• نهر عسلٍ مصقّى خالص.

لكل شيء غايةٌ وكمالٌ يسعى إليه؛ فكمال الماء ألا يتغيّر طعمه أو رائحته، وكمال اللبن أن يحافظ على نقاء مذاقه، وكمال الأشربة أن تُمتّع الحواس وتكون لذيذة، أما كمال العسل فيكمن في صفائه وخلّوه من الشوائب^٥.

عند التأمل في صفات الماء واللبن والخمر وأنواع العسل في هذه الدنيا، ندرك أنّ لكل واحد منها نقائصه: فالماء قد يتغيّر طعمه أو رائحته، واللبن يفسد بعد حين، وخمر الدنيا يورث الصداع والسُّكر والخيبة، أمّا العسل فلا يكون دائماً نقياً خالصاً.

هذا النمط من الوصف للجنة يحقق هدفين أساسيين: أولاً، ربط النعم الأخروية بمدركاتنا المألوفة (كالماء واللبن والخمر والعسل) لتسهيل تصوّر الجنة وبناء صورة ذهنية لها. ثانياً، إبراز الفارق الجوهرى بين كمال هذه النعم الأبدية في الجنة، وبين مثيلاتها الناقصة والزائلة في الحياة الدنيا. فالنعم الموعودة في الجنة تتصف بالدوام والكمال المطلق.

وكمثالٍ بارزٍ على هذا التباين، نجد أن خمور الجنة تختلف اختلافاً جذرياً عن خمور الدنيا؛ فالأخيرة تؤدي إلى السُّكر والفتور وزوال العقل، في حين أن خمور الجنة هي مصدر لليقظة والنشوة واللذة الروحانية، ولا يترتب عليها أي أثر سلبي.

فيما يخص الشبهة المثارة، يجدر بنا التنويه إلى أن آيات كثيرة تشير بوضوح إلى خلو الجنة من أي مشقة أو أذى يلحق بأهلها. إن الذين يطرحون مسألة لزوجة العسل، وضرورة وجود حرارة مرتفعة لضمان جريانه، يستطيعون إيجاد الرد الشافي على تساؤلاتهم بمجرد إمعان النظر في آيات الذكر الحكيم. فالله سبحانه وتعالى يصف الجنة في سورة طه بقوله: "وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى" (سورة طه، الآية ١١٩). هذه الآية وحدها كافية لدحض إحدى ركائز هذه الشبهة، وهي افتراض وجود حرارة عالية في الجنة.

أما بخصوص أنهار الجنة، فثمة تأويلات وتفسيرات متعددة لطبيعتها. يرى بعض المتصوفة في هذا التعبير دلالة رمزية؛ فهم يعتبرون أن الأنهار السماوية هي ينباع العلم والمعرفة التي تنبع في شغاف قلوب المؤمنين وتجري فيها، وكما يُحيي مجرى الماء الأرض الجذباء، فإن هذه الأنهار تُعد مصدر إحياء القلب وعمارة كيان المؤمن. في المقابل، يذهب آخرون في التأويل إلى القول بأن هذه الأنهار تجلّ واستمرار لآثار أعمال صالحة ونافعة قدمها الإنسان في الدنيا حتى قيام الساعة وعالم الآخرة. ولعل الإشارة إلى العسل تحديداً، باعتباره أقصى مثال للحلاوة في تصورنا الدنيوي، ما هي إلا كناية عن عذوبة ونعيم الخيرات التي أعدها الله لأهل الجنة.

٥. مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ (محمد: ١٥)

لقد سعينا في هذا الدرس إلى الإجابة عن تساؤل جوهري: هل يمكن وصف الجنة لمن لم يرها، وما هي قيود تحكم هذه العملية؟ أشرنا إلى أن الغموض والاستفهام يكتنفان في معظم الأحيان مسائل لم نعهدها أو نسمع بها. وفي مثل هذه الحالات، يمثل توظيف معارف وخبرات سابقة، المنهج الأمثل لتقديم ووصف الموضوع الجديد. واستكمالاً لذلك، عرجنا على وجه الشبه بين الدنيا ورحم الأم. فكما يعجز الجنين عن استيعاب النعم والملذات التي تنتظره خارج الرحم، فإننا نجد صعوبة مماثلة في إدراك حقيقة عالم الآخرة ونعيمه. إن عظمة الآخرة لا يمكن مقارنتها بما هو متاح في الدنيا. هذا التفاوت الهائل هو ما يفرض علينا اقتصار الأوصاف المتاحة لعالم ما بعد الحياة على حدود ضيقة.

ومن هنا جاء وصف الجنة بنعم مادية مألوفة لنا، إذ لا سبيل إلى تقريب صورة الغيب إلا بما رآه الإنسان أو سمع به في دنياه. غير أنّ ذلك لا يعني أنّ نعيم الآخرة ماديّ فحسب، بل فيها من اللذات الروحية والمعنوية ما يفوق إدراكنا، غير أنّ عقولنا لا تحتمل تصوورها. إنّما ذُكرت النعم المادية لتكون وسيلة لتقريب الفهم إلى أذهاننا المحدودة.

إن كان لديكم أنتم أيضاً رؤية أو ملاحظة حول حدود وصف الآخرة والجنة، فمشاركتها تثري هذا البحث.